القسم الأول

انتاج الارزاق

الفصل الأوّل

المقصود من الانتاج — الفواعل المختلفة التى تعاون الصنيع المنتج : الطبيعة ، العمل ، رأس المال

المقصود من الإنتاج — الحاجات البشريّة

يُنتِجُ الإنسانُ لقضاء حاجاته . ومَنشَأُ تلك الحاجات من الطبيعة البَشريَّة، فيما يَنتابُها من ضَرورات، وشهوات، وأذواق ، سواءٌ كانت تلك المَطَالِبُ كلُّها أوّليَّةً فِطريَّةً أو صِناعيَّةً متعدّدة بفعل الحَضَارة على كرور الأَحقاب ؛ وسواءٌ كانت عامَّةً يَشترِك فيها النوعُ الانسانيُّ ، أو جماعاتٌ غفيرةٌ منهُ ؛ أو خاصَّةً بأفراد من العالمين . تلك

الحاجات هى أساسٌ راسخٌ ، غيرَ أنها بذواتهـا قابلةٌ للامتداد والتنوُّع بلا نِهاية

وقد قسَّمها بعضُهم الى حاجاتٍ طبيعيَّـة ، وحاجاتٍ صناعيَّـة

وفصَّلها بعضهم فسمَّاها حاجاتِ الغذاء ، والكِساء ، والمأوَى ، والزّينة ، والعلم ، والتروُّح الخ

كلُّ واحدة من تلك الحاجات لها منبتُها فى فِطرة المرء . فاذا نظرنا منها الى الزّينة مثلاً لم نجدها خاصَّة بالحَضَريّين المُدَّنين ، بل نجدُها ظاهرةَ الأثر عند الأقوام الهَمَجِ وان خالطتها السَّذاجةُ أو مازَجتْها السَّماجةُ

أما قابليَّة الحاجات الانسانيَّة للامتداد والتنوُّع ، الى ما يُخْطِئُهُ العَدُّ ، فهى الحادث الاقتصاديُّ الأكبر الذى شَهِدَت بهِ المدنيَّة فى كلِّ مكان وزمان

انبرى جماعةٌ من الفلاسفة وعلماءِ الأخلاق للتَّنديد بما دعوْهُ بالحاجات الصناعيَّة ، أو الكاذبة ، فأصابوا فى شىء ، وأخطأوا فى أشياءَ

أصابوا حيث قبَّحوا شرَهَ النفس ، وتلك الظمأةَ التى لا تَرْوَى فى الشهوات ، ولا تكاد تَنْقَضِى حتى تتجدَّدَ ؛ فتَكِدُّ العقلَ ، وتَقْلِقُ الذِّهن ، ولا تَدَعُ لصاحبها راحةً أو مسرَّة غيرَ مَشُوبةٍ بالكدر ، على ما يُحيط بهِ من وَفْرِ الجاه وأسبابِ الرَّخاء

وأصابوا ، حيث أنكروا تلك الوسائلَ التى يَفْزَعُ اليها بعضُ أَخسَّاء الطّباع ، ليستفيدوا ضروباً من النِّعَم ، من طُرُق الإيذاء للنَّاس

لكنهم أخطأوا ، حيث حاولوا أن يجعلوا حدًّا للأمانيِّ التى يَلتمسُ أربابُها تحقيقَها بما أُحِلَّ من الوسائل

سنَعُودُ فى قِسم آخرَ من هذا الكتاب الى البحث فى النَّفائس [1] بما يَجدُر من الإسهاب

غير اننا نُقرّر من الآن أن تعَدُّدَ الحاجات ليس من آيات الوَهَن أو علامات السَّقَم فى الفِطرةِ البشريَّة ؛ بل قد يكونُ دليلاً على عَظَمَتِها وكَرَمِها

---

(١) هى التى عرَّفها بعض كتّابنا بالكماليّات

الطَّبقةُ السُّفلى من الحيوان أقلّ حاجات من الطَّبقة العُليـا ، والهَمَجُ أقلّ حاجات من البَرْبر ، والبَرْبرُ أقلّ حاجات من الأمم المتحضّرة فى أثناء المدنيَّة

على ان تعدُّدَ الحاجات وانتشارَها ، انما يكون مَأتاهُ فى الغالب من ثلاثة :

التشبُّه أو المحاكاة[1] ، العادة ، الإرث

التشبُّه هو الذى يَدْفع الشعوبَ المنحطَّة ، حين تتَّصل بالشعوب الراقية ، الى أن تستعيرَ من طيِّباتِ أحوالها ما تَستصلِحهُ لعيشها

فاذا كان ذلك ، تولَّدَت منهُ العادةُ الذاتيَّة . وهذهِ العادة يُؤَيّدها التَّوارثُ ، فتتأصَّلُ فى النفوس تأصُّلاً يُهيِّئُ لأصحابهـا أنهم أصبحوا لا يَستغنون عن أشياءَ قد كانوا فى غِنًى عنها أو غيرَ مكترثين لها منذ أحقاب خلَت

وحسبنا أمثلةً على تعدُّد الحاجات تدريجًا ما نَستَخْدِمهُ

---

(١) التشبُّه أو المحاكاة هنا بمعنى (imitation) أما التقليد فهو بغير هذا المعنى خلافاً لما تفهمهُ العامة

اليومَ من أثاث ورِياش فى البيوت ، ومن سِلَع مُتنوّعة لِمَلْبَسِنا : كالجوارب والأحذِية والمناديل ، ومن الصُّنوف الكثيرة لِتَغْذِيَتِنا ؛ دَعِ الكتبَ والصحُفَ وأدواتِ الموسيقى

المصادر الثلاثة للإنتاج

لا يَجِدُ الانسان فى الطبيعة وحدَها ما يَكفيهِ بوجهٍ عامّ لقضاء حاجاته وبلوغِ لُباناته ؛ لأن الطبيعةَ انما تَفِى من نفسها بما يَسُدُّ بعض العَوَزِ الأوّل : كتَنَسُّمِ الهواء لكل حيّ ، وكتَدْفِئة الأبدان طِوالَ السنة فى أمصار ، وشَطراً منها فى أمصار أُخَرَ

وفيما عدا هذين وما يُشاكلهما ، لا بدَّ لها من معاوَنة الإنسان وتدبيرِه

تجِدُ مِصداقَ هذا القول فى استقصاء أحوال الخَلْق منذ البَدء ؛ فان الأُسَرَ والعشائرَ فى أيام قِلَّتها واتساع المناطق التى كانت حالّةً فيها ، كانت لا تُصيب أقواتَها الاّ بِشِقّ النفس ، واستسهالِ الصِّعاب من قَطف الثمار البرّيّة

واصطياد الوحوش والسَّمَك ، ورَعْي الإِبِلِ

إِذاً فلا يَتسنَّى للمرء أن يَقضيَ حاجاتهِ ما لم يكن مِعواناً للطبيعة ، ولا يتسنّى الإِنتاجُ ما لم يَتضافر كلاهما معاً

فإِنما الطبيعة هى القوَّة غيرُ العاقلة ، والمادَّةُ العامَّة المتنوّعة التى يَسقيها الانسان بعرَق جَبينه ، ويُدَرّ بها بقوَّة ذكائه ، ويَستغلّها بآلات من اختراع فكره تَبدأ وبها نَقص ، ثم تتكامل بتوالى الأيام على ما تقتضيهِ الخُبرة والرَّوِيَّة

أما مُعاونة الإِنسان للطبيعة فهى على نوعين : أحدُهما عملُهُ الوقتيُّ ، وجَهْدُهُ العصبيّ والعضليّ ؛ وان كان لا يُفْضَى معهُ الى بعيدِ الغايات

وثانيهما إِحداثُ رأس المال واستخدامُهُ ، وبهِ تَكمُلُ المعاوَنة

وغير خافٍ أن الانسانَ اذا بلغ مَبلغاً من الحضارة ، توافَرت لديهِ وسائلُ العمل بما يُضاعف قُوَى ذراعيهِ ويَفتُقُ الحيلةَ فى ذِهنهِ

ذلك لأنهُ ادَّخر من المُعدَّات ما يُهيّئهُ لأن يقوم قياماً

لا تَعترِضهُ الشواغلُ ، بعمل بعيدِ الأمَدِ لا تُدرَك نتيجتهُ الاَّ بعد كرّ الأيام ومرّ الشهور

وأنهُ صنع مصنوعاتٍ ليست بذاتها مما يَفى بحاجاته ، ولكنها تُسَهّل عليهِ اقتناء أشياءَ أُخرَ فيها الغَناء[1]

تلك المصنوعاتُ هى الأدوات من مثل القوس ، والسِّهام ، وصُنّارة الصيد ، والمِعْوَلِ ، والمِحراث ، الى أدقّ الآلات تركيباً وأعجبها نظاماً ؛ وهى التى تُدعى برأس المال

على أن رأسَ المال قد أوجدهُ النـاسُ منذ وُجِدُوا ؛ فكانت منهُ الحجارةُ التى استخدموها ضروباً فى العصر المعروفِ بالعصر الحَجَريّ ؛ كما أن منهُ القاطِرَةَ ، والمِحراثَ البُخارِيَّ ، وأشباهَهما فى هذا العصر

الانسان بِعَفْوِ طبعهِ كلِفٌ بصنع الآلات ؛ وعلى قدر نُمُوّهِ وارتقائهِ تتعدَّدُ الآلات وتتنوَّع وتَغْرُب[2] أجهِزَتُها ؛ حتى كان من ذلك فى أيّامنا أنهُ أحدث أدواتٍ من مثل جداولِ الحساب يُستعانُ بها على بعض الأعمال الذِّهنيَّة

---

(١) الكفاية (٢) تصير غريبةً

يُستخلص مما تقدَّم أن الإِنتاجَ فى مواطن الأَقوام الذين خرجوا من هَمَجيَّة القرون الأولى ، إنما يَتأتَّى عن ثلاثةِ مصادرَ : الطبيعةِ ، عملِ الانسان ، رأسِ المال

obeikandl.com

الفصل الثانى

فى بيان ما للطبيعة والقُوى الطبيعيَّة من السّهم فى الإنتاج

تعريف الطبيعة من الجهة الاقتصادية — التفاوت فى الهبات الطبيعية كتفاوت الجواء ورسوم الأرض وظاهر التربة وباطنها — معظم هبات الطبيعة لا يشترك فيها الناس كافة وليست بمجانية

شأنُ الطبيعة فى الإنتاج

الطبيعةُ أوَّلُ مَصادِرِ الإنتاج : ومعنى الطبيعةِ لا يَقْتَصِرُ على الأرض والتُّربة ؛ بل يَتناولُ جميعَ ما يُحيطُ بالإنسان ، وما فى ذلك المُحيطِ من القُوَى ؛ على حدّ ما نراهُ من أنَّ الإنسانَ قد أخَذَ فى هذا العصر يَبحثُ عن تسخيرِ القُوَى التى لا تَخرُجُ من نَفْسِ دُنيانا . فهو قد استخدَمَ نورَ الشمس لتصويرِ الأشباحِ ، وما زالَ يَعْمَلُ على استخدامِ حرارتِها فى بعض الأُمور الصناعيَّةِ

تَنقسم الطبيعةُ من حيثُ ارتباطُها بالإنتاجِ الى ثلاثة مصادِرَ فرعيَّةٍ : (١) الجوّ والرسم الجغرافيّ، (٢) التّكوين الأَرضيّ (المقصود بهِ ما فوق الأرض وما تحتَ الثَّرَى) ، (٣) قُوَى العواملِ الطبيعيَّة المتنوّعة من مِثل القوَّةِ المحرّكةِ فى الرّياح وفى مجارِى الأَمْواهِ، والقوَّةِ الانتشاريَّة فى الغازات ، وضروبِ استخدامِها فى علمِ الطَّبيعة والكيمياء

كثيراً ما يقولون إنّ الطَّبيعة من جهة الإنتاج ليست الاَّ العُنْصُرَ المُنْفَعِلَ ، وإن عَمَلَ الانسان إنما هو العُنْصُرُ الفاعِلُ

تلك القاعدةُ لا تَنطبقُ على الواقع ؛ اذ لا شىءَ أَفعلُ من الطَّبيعة ؛ فهى لا تَستَقِرُّ ولا تنقطِعُ عن التغيُّر والتَّحرُّك والعمل بدليلِ ما تُنْبِتُهُ ، وهو أَظهرُ الأَدلَّة . وفضلاً عن قُوَّة الإنبات فان سائرَ ما فيها من قُوَى الرّيح والماء والبُخار لا يَفْتأُ فاعلاً

وربما صَحَّت هذه القاعدةُ بعضَ الشىء ؛ وان كانت من الجهة النظريَّةِ المَحْضَةِ غيرَ صحيحةٍ . وانما يَتأَتَّى جَوازُ

صحتَّها من أن الطَّبيعةَ على استمرار فعلها لا تَخرُجُ عن نِظـام متُماثلٍ لا يَزدادُ بنفسه ولا يَنْقُصُ بنفسه ؛ أمَّا الإنسانُ فيَستطيعُ بجهَده وحيلته أن يُؤثّرَ فيها تأثيراً يَجعلُ محصُولاتِها أوْفرَ كمًّا [١] واكثرَ ملاءَمةً لحاجاته

فهو بحرْثهِ الأَرضَ ، وبَذْرِهِ البذارَ ، وتَشذيبهِ [٢] الشَّجرَ ، وتشييدهِ الطواحينَ الهوائيَّةَ وإقامتها على الروابى ، وبتَخطيطهِ الترَعَ وتحويلهِ مَساقطَ المياه ، وبتَفْريقهِ الغازاتِ أو تأليفهِ بينها على قَدَرٍ معلومٍ ، يَملِكُ الطبيعةَ ويَقْتادُها بأزمَّةٍ يُصَرّفُ بها نَشاطَها الى ما لا نِهايةَ لهُ ، نحو الغَرَضِ الذى يَبْتغيه

وبذلك يُوطِّدُ أسبابَ الحياةِ ويُوَفّرُ محاسنَها

كتبَ بعضُ الاقتصاديّين أَنَّ شأنَ الطَّبيعـةِ فى الإنتاج يَقِلُّ ويَتضاءَل بمقدار ما تَزدادُ الحَضارةُ وتَنْتشِرُ . وهذا رأيٌ ظاهرٌ خطَلُهُ

المَدَنيَّةُ من جهتها الحسّيَّةِ انما هى اختيارُ الأَصلحِ من

---

(١) كمية (٢) التشذيب هو التقليم

كلّ نِظام — والانتفاعُ ما أمكنَ الانتفاعُ — بالقُوَى الطَّبيعيَّةِ، والقصدُ من ذلك أن تُجْعَلَ مُعاوَنةُ الانسانِ للطَّبيعة مُعاونةَ أُلفةٍ، وفِطْنةٍ، وتَدَبُّرٍ

التَّفاوتُ فى هِبات الطبيعة

المَرافِقُ والقُوَى الطبيعيَّةُ ليست مُوَزَّعةً تَوْزِيعاً مُتَساوِياً على وجهِ البسيطة

فاذا نَظَرْنا من جهة المحصولات الغِذائيَّة وَجَدْنا أن الأَرَضِينَ تَتَفاوَتُ فى الخِصْب؛ وان رِمَال « بُومِيرَانْيا[1] » مثلاً أقلُّ إنتاجاً من أوْدِيَة نهرِ « اللُّوَارِ[2] » أو نهرِ « الرُّون[3] »؛ وأن نُجُودَ[4] آسيا الوسطى، وان لم تَعْمَلْ فيها يَدُ الإنسان، أوْفَرُ كَلأً[5] من المَراعى التى هى على

---

(١) Poméranie مقاطعة فى بروسيا (٢) Loire نهرٌ بفرنسا (٣) Rhône نهرٌ بفرنسا (٤) نجود جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض (٥) Steeppes الكلأ كل نبت بين النجم والحشيش؛ والنجم كل نبت لا ساق له

ضِفافِ السّين ، بل أن جبال الأُورين[١] ، والكَنْتال[٢] ، في دائرة البلد الواحد، لا تُضارعُ بخيراتها سُهولَ «الفلَنْدِرِ[٣]» و « اللّيماني » « بأوڤِرْنِيا[٤] »

ذلك التفاوتُ لا يَختصُّ بخِصْبِ التُّربة ، بل يَتناوَلُ أُموراً أُخرَ ليست بأقلّ شأناً

فقد وقع الإجماعُ في كلّ زمان على أن نَسَبَ المدنيّةُ وتأثيرُها الى ثلاثٍ : مَظْهرِ البلاد ، ونوْعِ المحصولات التي تُخرِجُها تُرْبتُها ، ورسمِها الجغرافيّ وحالةِ جوّها

أجلْ ، فان لكلّ اقليم صفاتٍ تُهيّئ في نفوس أهلهِ ، جماعاتٍ كانوا أو أفراداً ، استعداداً فِطْرِيّاً لأُمور خاصّة

من هذا القبيل، أَن «الفِينيقِيّين» و «القَرْطاجِنيين» و«اليونان» و«البَنادِقة» و«الهُولَنْدِيّين» و«الانكليز» ، كانوا أقوامَ تِجارةٍ وملاحةٍ بما لم يُبارِهم فيهِ « السّيتيّون »

---

(١) Lorraine مقاطعة بالمانيا (٢) Cantal مقاطعة بفرنسا (٣) Flandre مقاطعة بفرنسا (٤) Auvergne مقاطعة بفرنسا

ولا « الرُّوسُ » ؛ ممن أقاموا أو يُقيمون فى أمصار حافلةٍ بالسكان ، بَعيدةٍ عن البحـارِ ، عاطلةٍ من الانهر التى يتَّصلُ بعضُها ببعض

بَحثَ الباحثون ، وأطالوا ، فى الجوّ وما يَنْتابُ جسمَ الإِنسان بسببه. ولا مِرَاءَ فى أنّ الحرَّ ، اذا اشتدَّ واستمرَّ ، أضعفَ الجسدَ والعقلَ ؛ كما ان توالىَ النوائب ، أشباهِ الزلازل والأَعاصير فى البُلْدَان الاستوائيَّة ، مما يُوهن إرادةَ الرَّجل ، ويَكُفُّ بَصَره عما يكون فى غَدِهِ ؛ فلقد أثبتَ التاريخُ إِثباتاً غيرَ مُنْقَطِعٍ ان وَفْرَةَ المحصولات فى الأَمصار الحارَّة ، مع سُهولة استخراجها من منَابتها وتَوَافُرِ المطالب المعاشيَّة : من قُوتٍ ومأْوَى وكِسَاء يُدْرِكها الانسان بلا عَنَاء ، مما يَفُلُّ العزائمَ ويَثْلِمُ الفِطنةَ المُخترعةَ

لم نَكن لنُعيدَ هذهِ الأُمورَ لو لم يَدْعُنا الى ذكرها بعضُ ما لها من النتائج الاقتصاديَّة ذاتِ البـال ، فاننا لا نَقْصُرُ ما نستخدمُهُ من المحصولات والخصائص الطَّبيعيَّة ، على ما يَفي مُبـاشَرَةً بحاجاتِنا من مِثْلِ النَّبات ، وحرارةِ

الشَّمس، ودِفْء الجَوّ؛ بل تَتعدَّاهُ الى استخدام الخصائص الطَّبيعيَّة التى تُمكِّننا من تسخير الطبيعة نفسِها لإتمام أعمالِنا

وعلى هذا فاذا كانت وَفْرَةُ المحصولات مع سُهولة استنباتِها تَقْعُدُ بالهمَّة وتُوهِنُ الفِكرَ لِوَفائِها بحاجاتنا من أيْسَرِ السُّبُل، كانت على نقيض ما تقدَّم، وَفْرَةُ الخصائص الطبيعيَّة التى لا تَفِى بحاجاتنا الاَّ من أبْعَدِ طريق، أصلحَ ما يُرام لتشديد العزائم وتَبْصير العُقول . وأَمثلةُ تلكَ الخصائِص: مناجِمُ الحديد والفحم وآلاتُها التى نَنْتَفعُ بها انِّجاراً وسَقْياً للزَّرْعِ وتحريكاً للآلة

لهذا كانت الأرجاءُ الشماليَّةُ والأنحاءُ المُعْتَدِلةُ ، أقلَّ خِصباً من حيث المُنْتَجات التى تُستخْدَم بذاتِها فى قضاء الحاجات ؛ ولكنَّها أفْضَلُ من حيث الموادّ أو القُوَى التى تَضنُّ بها الطبيعةُ على غيرِ أهل الكَدِّ والنَّشاط . وفى هذا الفرْقِ بين الحالتين سِرُّ النَّجاح التدريجيّ الذى بَلَغهُ سُكَّانُ الأمصار الشماليَّة أو المُعتَدِلة

توجد إذاً أقاليمُ لا يُرْجى أن تَصِلَ فيها الحضارةُ الى

غايتها ، ما لم تُجلَبْ اليها من الخارج . لأنّ العقل يَتخدَّرُ فيها بفعل الحرارة ويُتخَمُ بكثرة المحصولات الطبيعيَّة فلا يَنْصرِفُ الى الاختراع ولا الى التبَصُّرِ ولا الى الادِّخار للتقدُّم فى سبيل العُمْران . فالاستعمارُ على هذهِ الحال ، سبيلُهُ جلْبُ الصنائع ورؤوسِ الأموال من ديار العزيمة والكدّ ، الى الدّيار التى مَنَعَ انتشارَ المدنيَّة فيها ضَنُّ الطبيعة عليها بما يُلائِم التَّقدُّمَ ، تحت مَظَاهر السَّفَه فى إعطاء الخيرات

ليست منافعُ الطبيعة مُشتَرَكةً بين جميع الناس ولا هى بمجّانيَّة تُمْنح بغير ثمن . يقولون مثلاً إنَّ البحارَ والأنهار مُشتَرَكةٌ بين العالمين قاطبةً . وهذا خطأ ، فانكَ لَتَجِدُ بُلْدَانًا تَمتدّ شواطئُها امتداداً زائداً عن نِسبة مساحتها ، وقلَّما تكون فيها أمكنةٌ بعيدةٌ عن البحر ؛ وتَجِدُ بُلدانًا أخرى ، بل قارَّاتٍ شاسعةً مُكتَظَّةً بالسُّكان ، نائيةَ الأنحاء عن المُحيطِ ، وما أحدَقَ بهِ الماءُ منها فهو متُجَمِّد لا تجوزُ فيهِ المِلاحةُ ، اللهمَّ الاَّ أياماً معدوداتٍ

فالبُلدان الأُولى لها الأفضليَّةُ الاقتصاديَّةُ على الثانية ؛

فقد تُسرِعُ فيها الحضارةُ، وتَنمو صِناعةُ اصطيادِ السَّمَك، وتُفْلِحُ التِّجارةُ، وتَرْخُصُ وَسائلُ انتقالِ الناس والبضائع. وهذهِ المنافع تَبْلُغُ أبعدَ غاياتها حيثما يكونُ البلدُ جزيرةً إهليلَجيةً[1] كبريطانيا العُظمى و « كوبا » و « جاوَه » و « اليابان »، فكثيراً ما تتحوَّل مزاياها الى نقود يكسبُها ساكِنوها؛ ذلك لأن عَمَلَ الرَّجل فى هذهِ الأَمصار أَرْبحُ لهُ من عملِ مثلهِ فى الأَمصار الأُخرى؛ وأنَّ النَّفقاتِ العامَّةَ التى يَقْتضيها الإنتاجُ — وأخصُّها نفقاتُ النَّقْل — نَزَرَةٌ يَسيرةٌ؛ وأن رُؤوسَ الأَموال على المُساواة بين تلك الأَصقاع وغيرِها تكونُ أغزرَ مَوْرِداً. وحَسْبكَ من مَزِيَّة هذهِ البُلْدان التى آثرَتها الطبيعةُ بِنِعَمِها، أَنهُ يُستطاعُ فى مساحة معلومة منها تَوْطينُ ما تَضيقُ عن بعضهِ مساحةٌ تُماثلها فى إقليمٍ آخرَ

---

(١) الإهليلَجُ كلمة معرَّبةٌ عن الهِنديَّة وهو ضربٌ من الثِّمار، وربما صيغَ على شكلهِ قِطَعٌ من الذَّهب فيُقالُ للواحدة منها إهليلَجةٌ، ويُراد به كلُّ شكل مستدير مُتطاول

فإذا تعادَلَ عَدَدُ السكان بين جهةٍ منها وجهةٍ من سِواها، كانَ مَكْسَبُ سُكانها اكثرَ لارتفاع أَسعارِ الاجورِ وتوافُرِ الأَرْباحِ

أمَّا إذا لم يكن البلدُ جزيرةً ولا مُجاوراً للمُحيط فانهُ لَيَنْتَفِعُ بما يَشُقُّ أرضَهُ من الأَنهارِ الكثيرة، حيث الطبيعةُ قد أحسنَتْ تَقْسيمَها: فهي مُتَّسعةٌ تَسْبَحُ فيها الجوارى[1] الى الأَرْجاءِ القريبة من مَصَبّها؛ وهي مُتقاربةٌ تَتَسنّى المُواصَلةُ بينها بتخطيط التُّرَع

تلكَ حالةٌ تَجِدُ عليها الصّينَ والولاياتِ المتّحدةَ وفرنسا.

ولهذهِ البُلْدان أفضليةٌ مُحَقَّقَةٌ على القِسم الذى يَعْلُو « الأَمازُون » من أمريكا الجنوبيَّة، وعلى مُعْظَم القارّةِ الأَفريقيَّة، وعلى مثل اسپانيا وروسيا فى أوربا

المَرافِقُ التى عَدَّدْناها تَجْعَلُ للبُلدان التى تكونُ فيها قيمةً اقتصاديَّةً شَبيهَةً برأس مالٍ قد استَغنى أهلُها عن ادّخارهِ وجمعهِ بأنفسِهم؛ فلولا الأَنهارُ المتقاربةُ فى أَرجائهم

---

(١) المراكب التى تجرى فى الأنهار

لأضطرُّوا الى تَمْهيد الطُّرُق الكثيرة فاستَدَانوا وأثقَلوا كواهِلَهم بالضَّرائب . وفوق ما سَبَقَ من صِفَةِ التُّرْبةِ وصِفَةِ الوضع الجغرافيّ فى كلّ إقليم ، تَجِدُ للطبيعة شأناً مذكوراً فيما يَنْجُم من بطن الأَرْض

لا أرَى من الصَّواب أن يُرَدَّ عدد السكَّان فى بلدٍ مَّا الى امتداد مساحتِهِ ؛ فإذا قيلَ إنَّ لكل مائتين من أهل بلجيكا كيلُومتراً من الأَرض ولكلّ مائة وستَّةٍ من أهل انجلترا مثلَهُ ، ولكلّ أحدٍ وسبعينَ من أهل فرنسا نحوَهُ ، ولكلّ أربعةٍ وثلاثينَ من أهل اسپانيا كذلك ، كان النَّظَرُ من هذهِ الجهة لا يَقِفُ بالناظر على الغَرَضِ ؛ لأَنَّ الأُمَمَ لا تَنْحَصِرُ معيشتُها فيما يُنْتِجُهُ ظاهرُ أرضِها ؛ بل يَمتدّ الى ما يُخرِجُهُ باطِنُها من فحم ، وحَجَر ، ومعادِنَ ، ومَنابع بترول[1]

فبلجيكا بلَدَانِ فى بلَدٍ واحد : ما فوقَ الأَرْضِ منها وما تحتَ الثَّرَى ؛ وكذلك انجلترا

---

(١) هو الزيت المعدنى للإستصباح أى الإضاءة

أمَّا فرنسا واسپانيا فالمناجمُ فيهما أقلُّ ، وللبُلدان التى على شاكِلَةِ بلجيكا وانجلترا مَزِيَّةٌ طبيعيَّةٌ غيرُ مجحودةٍ على باقى البلاد ؛ لأنها تَفِى بحاجات عَدَدٍ من سُكانها لا تَسْمَحُ بهِ مساحتُها ، فإذا لم يكن مُعَدَّل عَدَدِهم فوْقَ الوَسَط ؛ كان رِبحُهم فَوْقَ مُعَدَّل ما يَرْبحُهُ أمثالهُم

وعلى ذلك فالهِباتُ الطبيعيَّةُ مُتفاوتة فى كلّ مَوْضع ، وتَنَوُّعُ المحصولات داعٍ الى المقايَضَة ؛ غير أنَّ تلكَ المحصولاتِ لا تدُلُّ على أن جميعَ البلاد وجميعَ الشُّعوب آخِذَةٌ بحَظٍّ مُتَعادِل من المزايا

إن المُساواةَ لفكرةٌ هى أقربُ الأشياء الى الأوْهام لأنّ الطبيعةَ لا تُصَدِّقها فى محلٍّ واحد من الدُّنيا . ترَى أُمماً وبِلاداً قد جادَتْها الطبيعةُ بآلائها ، وترَى فى البلد الواحد جماعاتٍ من النَّاس قد أصابوا قِسَماً مُتباينَةً من تلك الآلاء : هذهِ مُقاطَعةُ « الجيرُنْد[1] » ومُقاطعةُ « السِّين[2] » الأدنى ؛ هما بلا نِزاع أمنَحُ سَهماً وأكرَمُ عُنْصُراً من

(١) Gironde بفرنسا (٢) Seine-Inférieure بفرنسا

« اللُّوزِير[١] » و « الأَلْب[٢] السُّفلى »

يَعْرِضُ للسوَّاد الأَعظم أن يتوهَّموا أن الهباتِ الطبيعيَّةَ مجَّانيَّةٌ يَظْفَرُ بها مَنْ يَشاء ؛ إِنْ هو الاَّ تَوَهُّمٌ مَنْقُوضٌ مِنْ أساسهِ . انما الهباتُ الطبيعيَّةُ المجَّانيَّةُ دون سواها ، هى التى يَتمتَّع بها النَّاسُ على السّواء فى الأَقطارِ المُدَّنة ؛ وأخصُّها فى صحَّةِ المجَّانيَّة والمساواةِ ، هو الهواء الذى يُتَنَسَّمُ . أما سائرُ الهِبات الموزَّعةِ على سَطح المَعْمُورِ ، فلَها قيمةٌ ذاتيَّةٌ بالنسبة الى الشَّعْب الذى يَنْتفعُ بها ، ومنها يَستَدِرُّ الفوائِدَ الكُبْرَى ، وعلى يَدِها يَصُونُ ما كان حقيقاً ببذلهِ من الأَموال فى إِيجاد وسائلِ النَّقْلِ ، أو ادِّخار الميرَةِ[٣] الصِّناعيَّة . والهباتُ التى من هذا القَبيلِ هى التى تَتفاضَلُ بها الشُّعوبُ فى المعاملة والمُبادَلة

الأُمة التى تَملِكُ جميعَ ما أَوْلَتْها الطبيعةُ من الخيرات ، جديرةٌ ، أريحيَّةً وعقلاً ، بأن تُبيح لسائر الامم مُشاطرَتها

---

(١) Lozère بفرنسا (٢) Basses-Alpes

(٣) المادة المدَّخرة provisions industrielles

فيها . وقد يقعُ ذلك على نوعين : أحدُهما يتمُّ بالمبادلات ؛ وثانيهما بإجازةِ التوطنِ للغريب النازح الى بلد يفضلُ بلدَهُ ويُلائم مزاجهُ ، تحت شرائطَ يقتضيها الأمنُ والتجنُّس

بعد هذه النظرةِ التى ألقيناها على قُدرة الطبيعةِ فى المعاونة على الإنتاج ، وألممنا بتنوُّع مرافقها وتفاوتِ خيراتها ، وما أوجبهُ ذلك التنوُّعُ والتفاوتُ من المبادلة بين الأمم ، ومن ضُروبِ الاستعمار ، ومن حُرِّيَّة الحلّ والترحال ، بقيَ علينا أن ننظرَ الى الطبيعة من وجه آخرَ

إذا ذُكِرَت الطبيعةُ فلا ينبغى أن تُقصَدَ بها المادَّةُ الظاهرةُ الجامدةُ دون سواها ؛ بل يجبُ أن تدخلَ فى معناها طبيعةُ الإنسان . وطبيعةُ الإنسان هذهِ هى غايةٌ فى التغيُّر وعدمِ التشابهِ تبعاً للمواطنِ والأجيال والأفراد . فإن الفتى الذى بلغَ المُراهقةَ ، هو نتيجةُ فواعلَ متعدّدةٍ : البيئةِ[1] البدنيةِ والإرثِ ، والتربيةِ ، وسابقِ سيرتهِ وحالةِ إراداتهِ

---

(١) المُضطرَبُ الذى يعيش فيه وقد سمّاه العُرفُ بالوسط

خَرَجَ الانسانُ مِنْ يَدِ الطبيعـة لأُلوف خلَتْ من السّنين . وأقامَ جيلاً بعدَ جيل تحتَ المُؤَثّرات المختلفةِ من حِسّيةً ومعنوِيةً ، حتى تكوَّنَ على الشَّكل الذى انتهى اليهِ ، شَعْباً كان أو فَرْداً . ثمَّ انبَرَت الإرادةُ والعزائمُ الذاتيةً لزيادة المُحَصَّلِ الذى اكتسبهُ أو تعدِيلهِ ، أو تنقيحهِ. الاَّ أنهُ قد يُوجد بين الشُّعُوب ، كما يُوجَدُ بين الأَفراد ، تباينٌ وتفاوتٌ فى القوَّتين الحِسّيةِ والمعنوِيةِ ، وفى العاداتِ والأَخلاقِ ، وفى رَقَابَةِ[1] النِّظام ، وفى التَّقاليد . فَيَنْتُجُ من ذلك ما يُشبهُ المراتِبَ الطبيعيةَ فى اختلاف قِيَمِ الناس؛ على أن تلك المراتِبَ ليست نهائيةً ، وقد يُفْضِى الواحِدُ أو الجماعةُ بكَدِّهِ أو بكَدِّهم الى تقريبِ ما بينهـا من الفَرْقِ جُهْدَ[2] المستطاع : فهذا الجَهْدُ[3] ، الذى يأتيهِ الواحدُ أو الجماعة ، إذا طبِّقَ على الإنتاجِ كان اسمهُ العملَ

(١) رقابة النظام أى التزام حدّه discipline

(٢) الجُهْدُ الطَّاقَةُ (٣) الجَهْدُ التَّعبُ

الفصل الثالث

العمـل

تعريف العمل — العمل المنتج وغير المنتج — العمل الحسى والعمل المعنوى — تقسيم الاعمال والصناعات — خصائص الانتاج المختلفة فى صنوف الاعمال — المقارنة والموازنة بين متعدد الحرف

تعريفُ العمل

العَمَلُ هو العُنصُرُ الثانى فى الإنتاج وهو الفاعل المُدَرِّبُ الذى يَقُودُ الطَّبيعةَ ويَزِيدُها خِصباً ، باستقصائهِ سُنَنَها ، وبتحويلهِ قُوَى المادَّة المُنْتِجةِ فيها الى مَصْلَحةِ الإنسان

ما العَمَلُ ؟

هو إِحدى الصُّوَر التى تتمثَّل بها العزيمةُ البَشريَّة

أوَ يَصِحُّ القولُ بأنهُ هو الصُّورةُ الشاملةُ لتلكَ العزيمةِ ؟ لا

رَجُلٌ يأكلُ ، وثانٍ يَرْتاضُ ، وثالثٌ يَرْقُصُ ، كلٌّ

منهم يأتى جهْدًا ، لكنَّ ذلك الجَهْدَ لا يُسمَّى عملاً

أكثرُ المحققين على أن فِكرةَ العمل ، تَستحضِرُ فى الذِّهن فِكرةَ الجَهْدِ والاستجْمام[1] ، والتَّعبِ

نعم إنَّ غيرَ واحدٍ من النَّاس ، أمثال الحاذقين فى الفنُون ، والمَهَرَةِ من الصُنَّاع ، والفلَّاحين الشَّغِفين بمُزْدَرَعاتهم ، يلَذُّون العَمَلَ

إلاَّ أن فِكرةَ الجَهْد ، وحبْسَ العزيمة على أمرٍ دونَ سواهُ ، لا تُفارِقُ عند صاحبها فِكرةَ العَمَلِ

ولقد قيلَ وهو الحَقُّ : إنهُ لو لم يكن العملُ شاقاً على النَّفس من بعض وُجوهِهِ ، لكانت الاحوالُ الاقتصاديَّةُ غيرَ ما هى عليهِ الآن . الانسانُ شَحيحٌ بتَعَبِهِ ، كلِفٌ بتقليلِ عَمَلِهِ : ومن هنا كان مَنْشَأُ النَّجاح الصّناعيّ الذى رُكْناه اختراعُ الآلات ، وتحديدُ الصّنَعات[2] وتقسيمُها فمبدأ تَقْليلِ العملِ ، وتقليلِ الجَهْد ، هو المِحْوَرُ الذى

---

(١) استجماع النفس واحتباسها لأمر مَّا

(٢) الصَّنَعات جمع صَنْعَةٍ وهى أجزاء الصِّناعةِ tâche

تدُورُ عليهِ الحياةُ الاقتصاديَّةُ كلُّها

الحَدَثُ الواحِدُ الذى يُحْدِثُهُ الانسانُ ، يكونُ بالتَّبعيَّةِ للغَرَضِ الذى يُرِيدُه منهُ ، والخُطَّةِ التى يَجرِى عليها فيهِ ، إمَّا تسليةً وإمَّا عملاً . وهذا هو الفَرْقُ بين مَنْ يَدعونَهُ (بالمتعشِّق[1]) وبين الذى يَدعونهُ بالصَّانع . من هذا القبيل : الرَّاقِصُ ، ومُعلِّم الرَّقص ؛ السائحُ ، والدَّليلُ ؛ المُصوِّرُ تعشُّقاً ، والمُصوِّرُ حِرْفةً ؛ طرَّاقُ السُّبُلِ للتَّرَوُّح ، وساعى البَريد ، الى ما يَتجاوَزُ الحَصْرَ من الأمثال

لِمَ يكون الحَدَثُ الواحدُ تسليةً أو عملاً ؟

العَمَلُ بالمعنى الاقتصاديّ ، لا يكون عملاً الاَّ اذا تَوافَرَت فيهِ شرائِطُ : منها أن يكون وسيلةً لا غايةً ؛ ومنها ان لا يكونَ مُنْقَطِعاً ، بل متَّصلاً بسلسلة من أمثاله ؛ وان يُثابرَ عليهِ صاحبهُ بنظام وتدَبُّر ليُدرِكَ منهُ غَرَضاً معلوماً . فكلُّ مجهودٍ يُبْذَل تَباعاً ، لتحقيق أُمْنِيَّةٍ مُنْتِجةٍ ، أي لقضاء حاجات الانسان ، يكونُ عملاً

---

(١) المُتَعشِّق (الغاوِى) amateur

والعَمَلُ نوعان : حِسِيٌّ ومعنويٌّ . ويقولون الى الآن عَضَليٌّ ، وعصبيٌّ

أما المعنويُّ أو العقليُّ فَيَنْتَشِرُ بمقدار ما تَنْتَشِرُ الحَضارةُ ، لأَن الغَرَضَ الذى يَسعى اليهِ الانسانُ لا ينبغى أن يكون العملَ بذاتهِ ؛ بل نتيجةَ العمل . ولما كانت حاجاتُ المرء مُتعَدّدةً ومُتَنوّعةً ، كان المُتَعيّنُ عليهِ ، وهو يَصْرِفُ عزيمَتَهُ فى سبيل الحصول على كلِّ واحدةٍ من تلكَ الحاجاتِ ، أن يُبْقِيَ على نفسهِ من النَّصَب[1] النَّاصب ، ليتمكَّنَ من استبقاء وقتهِ وهمَّتهِ لقضاء حاجاتهِ

وإجمالُ المَقال ، أن العملَ باعتبارِ مَنْفعتهِ عِتْقٌ ، وباعتبار ذاتهِ رِقٌّ

العملُ المُنتج والعملُ غيرُ المُنتج

ليس كلُّ عمل مُنْتِجاً : مَنْ تَلَهَّى بِهَدْم حائط ليُعيدَ بناءه ، أو بإحراق بَيت ليُشَيِّدَه ، أو بكَسْرِ زُجاجاتٍ أو

(١) التعب الشديد

قصاع ليستصنع غيرها ، كلّ أولئك ضربٌ من الجنون ؛ لأنه بذلُ جهد لا يزيدُ شيئاً فى أرزاق العباد

لكنّ العملَ يكون مُفيداً حين يُوجَّه الى تنمية الأرزاق الضرورية ، أو النافعةِ للنّاس

العملُ الحسيُّ والعملُ المعنويُّ

العملُ العقليُّ اذا حسُنَ تصريفُهُ ، أنتجَ إنتاجَ عملِ الأيدى أي الحسّى

المُهندِسُ الآليُّ (١) الذى أوصلَهُ حِذقُهُ وتجاربُهُ الى اختراع قاطِرَة ، يكون فى الإنتاج كالصانع الذى يَصْهَرُ (٢) حديدَها أو يُركّب أجزاءها فيُخرجُها صالحةً للاستخدام ، وكالوقّاد أو السّائق الذى يُسيّرُها

المُهندس البنّاء (المِعمارُ) الذى يُقدّرُ الأبعادَ ويُبيّن صنوفَ الأدوات ومقاديرَها ويَضعُ الرّسمَ لتشييد بَيتٍ ، يكونُ مُنتِجاً كالبنّاء والمُسقّف (٣)

---

(١) الميكانيكى (٢) يُذيب الحديد (٣) بانى السقف

الوَهِيْنُ (العَرِيفُ) ، الذى يُوَزّع الصَّنعاتِ وَيُرْشِدُ الحَيارَى ويُصلِحُ ما يَقَعُ من الخطأ ، يُنْتِجُ كالصَّانع الحاسبِ الذى يَضْبُطُ ما يُدَوّنُهُ من الدَّخلِ ضَبطاً يَتَبَيَّن معهُ القَصْدُ من السَّفه[1] ؛ وكلاهمـا يُنْتِجُ كأحد العامّة من الفَعَلَةِ

هذهِ حقائِقُ جليّةٌ ، حاوَلَ بعْضُ المُبدِعين الحاضرين أن يُلقوا عليها الحُجُبَ ، فانتقصوا العملَ العقليَّ وحقَّرُوه فى أعيُن فريقٍ من الناس ، كما حُقِّرَ أخوه من قبْلُ وهو العملُ اليَدَوِيُّ

فلو صحَّ ما يَزْعُمون لكان صانعُ القِيثارة مُنتجاً دون الموسيقارِ[2] الضارِبِ عليها

ولكان طابعُ الكتَاب مُنتجاً دونَ مؤَلِّفِهِ

ولكان الصيدليُّ الذى يُرَكِّب الدواءَ مُنتجاً دونَ الطَّبيب

على أنهُ من الثَّابت أن الأَعمالَ العقليَّةَ ، قد تكونُ

---

(١) الاسراف (٢) الضارب على الموسيقى

لها نتائجُ أطوَلُ عُمْراً ، وأوْسَعُ مَدًى من الأعمال الحِسيَّة

أليس في الحَقّ أنّ دَرْساً يُلقى على تلميذٍ يكون أرْسخَ فى ذِهنهِ وأفعَلَ فى مُستقبَلهِ من فِنْجانِ قَهْوَة يَحْتَسيهِ[١]

أكْثَرُ أعمال العقل إنتاجاً عَمَلان :

أوّلهما الاستكشافُ أو الاختراع ؛ وثانيهما التّدْبيرُ أو الإدارَةُ

العمل الحِسيُّ المَحْضُ تعْتوِرُه نقائِصُ المادّةِ ، ولا يُستفادُ منهُ سوى تَغْيير الأجزاء التى هى مُكوِّنةٌ منها ؛ ثم إنهُ يَتعَذّر تولّيهِ فى جهتين معاً ، فهو محدودٌ زماناً ومكاناً

أمّا عملُ الاستكشاف ، والمُلاءَمةِ[٢]، فعلى العكس من ذلك ؛ لأنهُ يَشترِكُ فى خصائص العقل ، ويَمتَدُّ من فَوْرِهِ الى العالَم كلّهِ ثمّ يَنتَشِرُ الى الأزْمنة الآتية فتَرْتَدّ صَداه جيلاً بعدَ جيل

---

(١) يشربُهُ (٢) (الملاءمة) وضع كل شئ بجانب ما يوافقهُ combinaison

إذاً ، فالإنتاجُ العقليُّ ذو مقدِرةٍ لا تُحصَرُ وبقاءٍ لا يُحَدُّ. هـذا اختراعُ الآلات البُخارِيَّة والتلغراف ، والمَناسِجِ ، والفولاذ البسِمْرِيّ[١] لم تَكَدْ تمرُّ بهِ سنواتٌ قلائلُ حتى انتشَرَ فى أرْجاءِ المعمورِ

دَعْ سوى هذهِ المُحْدَثات من المُستكشَفات التى لاتُضارِعُها فى الشُّهْرَة ، وان ضارَعَتْها فى الفوائد

لا جرَمَ أَن أعمال النَّوابغ من أهل الاستنباط ، كانت لها منزلتُها من النُّفوس. أما المتقدِّمون فكانوا يَرْفعونَ المخترِعين الى مَصافِّ الأَبْطال ومَراتب التأْليهِ ، كما فعلُوا بـ « تريبتوليم »[٢] وأما الاقتصاديُّون الأَحرارُ من أهْلِ هذا الزَّمن فإنهم يَجعلون للمخترِعين القِدْحَ المُعلَّى فى توزيعِ الارزاق

---

(١) نسبة الى مستكشفهِ Bessemer « بِسْمر » وهو مهندسٌ انجليزيٌّ وُلدَ فى هَرتفُورْد سنة ١٨١٣ ومات سنـة ١٨٩٨ وهو المستكشِفُ لطريقة تحويل الحديد الى فُولاذ

(٢) Triptolème ملك من ملوك اليونان الأقدمين اخترع المحراثَ وعلَّم شعبَهُ فِلاحةَ الأرض

تقسيمُ الأعمال والصّناعات

كَثُرَ الأَخْذُ والرَّدّ فى تقسيم الأَعمال البَشَرِيَّةِ ولكنَّ التَّقسيمَ الذى يَحسُنُ السكوتُ عليهِ هو :

١ً — الصّناعات الاستِخراجيَّة[١] وهى التى تُستَخلَصُ بها من الطَّبيعة جميعُ الأَشياءِ النافعةِ بلا تَعْدِيل جَوْهَرِيٍّ فيها وأمثلتُها : قَطْفُ الثمار البَرّيَّة ، صَيْدُ السَّمك ، قَنَصُ الطَّير والوَحْش ، إستغلال الغابات والمناجِم والمحاجِر

٢ً — الصناعة الزّراعيَّة (أى الفلاحة) وهى التى تستخلِصُ من الأَرض جميعَ الأَشياء النَّافعة ؛ ولكن بعد تذليلِ الطبيعةِ بفعل الإِنسان ، ولا يَتَسنّى لهُ تذليلُها إلاَّ من حيثُ يأخُذُها بِسُنَنِها

٣ً — الصِّنـاعات التَّحوِيليَّةُ[٢] وهى التى تُيَسِّرُ للانسان ، سواءٌ كانَ من طريق الأَعمال اليدَويَّة ، أو من طريقِ استخدام القُوَى الطبيعيَّةِ والكيماويَّةِ ، أنْ

---

(١) Industries extractives

(٢) Industries manufacturières

يُحوّلَ الأشياءَ التى دَفَعَتْها اليهِ الصّناعتانِ الآنِفتانِ — الاستخراجيةُ والزّراعيةُ — ويُشكّلَها . وأمثلةُ ذلك المَناسجُ [١] والمَصاهِرُ [٢] المعدنيّةُ، وسائرُ صنوف المصانع

٤ً — الصّناعة التجاريّة وهى التى تُجْمَعُ بها البضائعُ وتحفظُ ، وتُوَزَّعُ ، وتُباعُ على طلاّبِها

٥ً — الصّناعة النَّقليّة : وهى التى تُسَهّلُ حَمْلَ النّاسِ والأشياءِ من جهةٍ الى جهةٍ ؛ وانما كان استقلالُها عن التّجارةِ لِشدّةِ ما اتّسعَ من نِطاقها وعَظُمَ من شأنها فى هذهِ الأيامِ

٦ً — الخِدَمُ المعنويّةُ : وهى التى تَدْخُلُ فيها وظائفُ الحكومةِ ، والحِرَفُ الحرّةُ ، من مِثلِ الطّبِّ والمُحاماةِ والأدبِ والإنشاءِ والموسيقى

وقد رأى بَعْضُهم أن يُفْرِدَ قِسماً للاختراع والاستكشافِ اللذين يُوَفَّقُ اليهما العلماءُ أو المُهندِسُون ،

---

(١) المناسج معامل النسج بأنواعه (٢) المصاهر معامل صنع الحديد بأنواعها forges

أو أفرادٌ من العبـاد ؛ غير أَنَّنا مع اعترافِنا للمُخترِعين والمُستَكشِفين بأنهم أعجَبُ المُنتِجين وأنفعُ النَّاسِ للناس، لا يَسَعُنا إلاَّ إبقاءُ أعمالهم فى دائرةِ القِسم السَّادس من هذا الترتيب ، وهو الذى تَندَمِجُ فيهِ — على اختلافِ النَّوْع والشَّأن — أعمالُ الأُجَرَاءِ

بهذا التَّقسيم قد قَضَى القِياسُ العقليُّ ، وليسَ فيـهِ أرْجَحِيَّةٌ اجتماعيَّةٌ للدَّاخلين فى قِسمٍ على الدَّاخلين فى آخرَ

أجْمَعَ الأقوامُ فى عصرِنا هذا على أنَّ الصنائعَ الاستخراجيَّةَ والزِّراعيَّةَ والآليَّةَ مُنْتِجةٌ بلا جِدَال. ولكنَّ فريقًا منهم قد اختلفوا فى سِواها ، فقالوا هل النَّقْلُ ، والتِّجارةُ ، والحِرَفُ الحرَّةُ ، ووظائفُ الحكومةِ ، من الأعمـالِ المُنتِجةِ ، أمْ هى طوائفُ طُفَيْلِيَّةٌ تَعيش من جَنى سواها ؟

خصائص الإنتاج المختلفةُ فى صنوف الأعمالِ

إذا نظرْنا من وجهٍ عامٍّ ، فالأعمالُ المُنْتِجةُ لا تَقَعُ تحت الحَصْرِ ؛ غير أنَّ الوظائفَ والحِرَفَ التى ذكرْناها

آخراً ، قد يوجَدُ فيها ما لا يوجَدُ فى الحقول والمصانع من تعَدُّدِ العُمَّال الى ما وراء الكفايةِ ، ومن النَّقائص الأخرى

نعم ان صِناعةَ النَّقْلِ منْتِجةٌ ، لأَنَّ اكثرَ الغلالِ والأَشياء لا تكونُ نافعةً ما لم تُوسَقْ من بلادِها متى زادت فيها عن العَوَز ، الى بلاد تحتاجُ اليها ويُرْهِقُها أَلاَّ تجِدَها . على أنَّ من المحصولاتِ ما لا يكون الاَّ فى بلادهِ بالحَصْرِ : كالقُطْنِ والبُنِّ والفحم الحجريِّ والحديد والمعادِنِ وخشبِ البناءِ ، الى سائر ما يَدْخُلُ فى هذا الباب . بل نَقولُ إِنَّ صناعةَ النَّقْلِ منْتِجةٌ فى الغاية ، لأَنها تُمكِّنُ كلَّ قَوْمٍ من الاسترسال فى خدمةِ ما آتتْهم الطبيعةُ من المحصولاتِ ، آمنينَ أَن يُفايِضُوا منها بما يُعْوِزُهم من المحصولات الأَجنبيةِ

فتلك الصِّناعةُ إِذاً قد أَضافت قُوَّةً الى قُوَّةِ الانسانيَّة ، ومُعْظَمُ الفضْلِ فى الحالة التى تحوَّلَ اليها العالَمُ منذ ثلاثة أَرباع القَرْنِ انما هو عائدٌ اليها

ثمَّ إِنَّ نَقْلَ المسافرين ، كنَقْلِ الأَشياء على السَّواء :

فالسَّفينةُ التجاريَّة التى تُقِلُّ الى أمريكا ألفاً من المُهاجرين « الألمان » أو « الإِرْلَنديّين » تَعْمَلُ عملاً مُنتجاً . بمعنى ان أولئك الأُلُفَ كانوا عاطلين فى مَسقَطِ رُؤوسِهم ، ولا يَسَعُهم إلاَّ أن يَعيشوا فيهِ عيشةَ الشَّظَفِ والخَصاصَةِ (١) فلما صاروا الى الجهات الأَبْكارِ فى ذلك العالَمِ الجديد ، أخرَجوا ما شاءَ اللهُ من خيراتِها . دَعْ هذهِ الفائدةَ الظَّاهرةَ وخُذْ مَثَلاً : القِطارَ الذى يَستَقِلُّهُ السَّيَّاحُ من مواطنِهم الى أمصارٍ أُخَرَ . هو لا شكَّ مُنتجٌ بالمعنى الاقتصاديّ ؛ لأَنهُ يُحدِثُ للانسان تَسلِيةً تَشْرَحُ صدرَهُ وتُرْضى عقلَهُ وتُتِمُّ عليهِ العافيةَ

غير أَن هذهِ الصِّناعةَ على عميم نَفْعِها ، قد تَعتَوِرُها عيوبٌ من المُغالاة ؛ منها ان تُمَدَّ خُطوطٌ حديديَّةٌ لا خيرَ فيها سوى مُزاحمةِ خُطوطٍ أُخَرَ ؛ ومنها أَنْ تُعَدَّدَ مَرافئ بجِوارِ مَرْفأ فيَضُرُّ بعضُها ببعض ؛ ومنها ان تُنْفَقَ الأَموالُ الطائلةُ لإِحداثِ الطُّرُقِ الحديديَّةِ ، حيث لا عُمرانَ ولا

---

(١) الفقر الشديد

تجارةَ ؛ وأخصُّ ما تكونُ هذه العيوبُ فى الأعمال التى تقومُ بها الحكوماتُ وتُنْفِقُ عليها من أموال الجباية

كلُّ ما ذكرناه عن النَّقل لا يأبى أن ينطبقَ على التِّجارة

التِّجارةُ منْتِجةٌ بذاتها ، ولا سيما إذا سيقَت فى مَساقٍ قويم . والتُّجَّار أكفالُ المُدِيرين والمُدَبِّرين للإنتاج فى أرْجاء الدنيا ؛ لأنهم يَقْدُرُون كلَّ بلد حقَّ قَدْرِه ، فى مَصادِرِه ومَوارِدِه وحاجاته ؛ ويُوَزِّعون المنتجاتِ بين الأَمْصار توْزيعاً يتوازَنُ معهُ العَرْضُ والطَّلبُ فى كلٍّ منها ، بلا تَوانٍ ولا إمهالٍ ، فعملُهم جليلٌ فى ذاته دقيقٌ فى صفاته

واذا كان لتُجَّار الجُملةِ فضلٌ فيه ، فلِباعةِ الأَشتات[1] سهمٌ[2] من ذلك الفضْل ؛ فهؤلاء يحفظون البضاعةَ — والحفظُ ربَّما عادَلَ الإنتاجَ — ثمَّ يَقْتَنُونَ منها المقاديرَ التى تُلائمُ الحاجةَ ؛ ثمَّ يُهَيِّئُون السِّلعَ بما يُسَهِّلُ اقتناءها ،

---

(١) بيع الأشتات وهو ما يسميه العامة بالقطّاعى

(٢) السهم الحِصَّةُ

أو يُرَغِّبُ في شرائِها، كما يَفعلُ البَدَّالُ الذى يُكَسِّرُ السُّكَّرَ، ويُحَمِّصُ البُنَّ؛ والجزَّارُ الذى يَبْضَعُ اللَّحمَ

وقلَّما تجِدُ تجارةَ أَشتاتٍ لا تَدْخلُ فيها صناعةٌ ما، أو تَيْسيرٌ ما. فهى بذلك تَكفي المُشتَرِين مؤونةَ الانتقالِ لِجَلْبِ الأَشياءِ التى يَبْتغُونَها منهـا، والمتاعبَ التى تُعانَى لإِعداد تلك الأَشياءِ على وَفْقِ مَرامِهم. بل ربما سَبقَتْ اليهم أمانيَّهُم وهم وادِعون[1]

لا مُشَاحَّةَ بعدَ هذا فى أنَّ التجارة مُنتجةٌ. إلاَّ أنهُ يَحْسُنُ هنا أن نَستَدرِكَ أمراً لا بدَّ منهُ

لا يَتسنَّى للتِّجارة الإِنتاجُ دونَ شرائِطَ مُعيَّنةٍ تُراقِبُها عَيْنٌ من الحِيطةِ؛ فانهُ إذا كَثُرَ عديدُ التُّجارِ الى ما يُجاوِزُ الحَدَّ، أضاعوا وقتَهُم وأضاعوا جَهْدَهم. ليسَ من اللاَّزِبِ أن يكونَ على قِيدِ كلِّ عشرين متراً خبَّازٌ وجزَّارٌ وبدَّالٌ وسِلَعِيٌّ[2] فى حانوت فسيح حافِلٍ بالزِّينات، فقد يَحدُثُ أن اشتدادَ المزاحمةِ بين صِغارِ التُّجارِ، واستزافَهم

(١) مستريحون (٢) بائع السلع

أموالهم فى النفقات العامة مع قلة المشترين ، يدفعهم الى إغلاء الأسعار بدلاً من إرخاصها : وهذا ما يفعله الآن فى باريس باعة الخبز وباعة اللحم ، ناهيك بأن غلو المزاحمة بين صغار التجار وبين الوسطاء ربما أفضى الى غش فى البضاعة

هذا الاستدراك جدير بأن يذكره العاقل حين ينظر فى الخصومات التى يقيمها أصحاب الحوانيت الصغرى على أرباب المتاجر الكبرى ، أو على شركات التعاون ؛ ذلك لأن هذين الفريقين محقان فيما يفعلان ، ولولاهما لأصبحت تجارة المتفرقات واغلة [1] على الأمة

وأما الشعوب الوانية [2] ، وأظهرها الإسلامية فانها أميل الى تجارة الأشتات : ولو تتبعت باعتهم لوجدتهم فى الغالب ينقلبون الى سرقة

بقى البحث فى ، هل الحرف الحرة ، والوظائف

---

(١) الواغل الداخل على القوم وليس منهم

(٢) الضعيفة البطيئة فى سير الحياة

العامَّةُ، والمِهَنُ الخاصَّةُ بخدمة الأَفرادِ، كمِهَن الأُجَرَاء، هى من الأَعمال المنتجةِ أم العقيمةِ ؟

لا يَتَرَدَّدُ النَّاظرُ اليها عند الوَهْلَةِ الأُولى فى الحُكمِ عليها أنها مُنتجةٌ، ما دامَ تَعْدَادُ القائمين بها لا يَتَخَطَّى حدودَها لو أُلْغِيَت الشُّحْنَةُ[1] من فرنسا. ورجالُها أربعون ألفاً، وأُلْغِيَ القضاةُ، وهم ستة آلافٍ أو سبعةُ آلافٍ، لاضطرَّ كلُّ فردٍ أن يتقلَّدَ السِّلاحَ لحماية حقلِهِ، وأن يتعقَّبَ المُفْسِدين حتى يَظْفَرَ بهم ويُعاقِبَهُم ؛ أو لاضطرَّ الأَهلون جميعاً أن يَمشيَ بعضُهم الى بعضٍ فى تأليف نِقاباتٍ تُنَظِّمُ لهم شُحْنَةً خاصَّةً على مثال ما فعل الإسبانيُّون فى القُرونِ الوُسطى حين أَلَّفوا منهم (الأَخَوِيَّة الشُّرْطِيَّة) المعروفة بأُخوِيَّةِ « سَنْت هرمنْداد[2] » ؛ ناهيكَ بأنّ كلّ فردٍ يُصبحُ بزُعْمِهِ قاضياً ومُنفِّذاً للأَحكام : كما يَفعَلُ الى الآن فى الجهات التى لم يتمَّ عُمرانُها من أمريكا الشماليَّة ،

---

(١) الشُّحنة والشُّرطة بمعنى ، وهم رجال الضبط

(٢) Sainte-Hermandad

أولئك النزلاء القساة الذين يقضون آناً بعد آنٍ على أناسٍ من الأهلين الأصلاء ، ويمثّلون بهم شرّ تمثيلٍ تطبيقاً لقانون « لِنش[1] »

فإلغاء الشحنة والقضاة يضيع على الزرّاع والتجّار ما لا يقوّم بثمنٍ من أوقاتهم بين تسلّحٍ وتشاورٍ ورواحٍ وجيئةٍ ، ثمّ إن مجهوداتهم تقاطعها الحوادث فتضعف ، فتخيب بذلك محصولاتهم أو تكاد . والضرر الذى يلحق بالمنتجين من وراء ذلك يربو كثيراً على ما يجرونه على الشحنة والقضاة من الوظائف[2]

يدخل تحت هذا الحكم ، المديرون ومستخدمو المصالح ، والأطباء ، والمحامون ، والمدرّسون ، والموسيقارون ، بل والشعراء . فهؤلاء ما لم يتجاوز عديدهم

---

(١) Lynch قانون قصاص الأهلين – به استباح الاهلون أن يقتصّوا لأنفسهم بأنفسهم من غير أن يتخاصموا الى الحكومة

(٢) الوظيفة الجعل أو المرتّب . وقد أطلقها العرف على كل عمل يترتب عليه جُعْل . وليس فى هذا الاطلاق ما ينافي إجازة الفصحاء تسمية الكلّ باسم البعض والمُسبَّب باسم السبب

دائرةَ الاعتدال ، هم أيضاً مُنتِجون . لأَنَّ الغايةَ التى انتَدَبوا لها تَفرِض عليهم فَضَّ الخصومات ، وتمهيدَ ما يرونَ فيهِ مصلحةً عامةً ، وشِفاءَ ما يُستوصَفون لهُ من الأَمراض ، وتعليمَ الجاهلين وتسليةَ الأَذْهان . ولا شىء أفْضَلُ فى الإِنتاج من اتّساق خِلالٍ ثلاثٍ : الوفاقِ ، والصحّةِ ، وانبساطِ النَّفس

ثمَّ إِن المدرّسينَ والعلماءَ ، الذين يُلقّنونَ المعارفَ المذخورةَ ، ويَنشُرونها ويُمحّصونها ويُنمّونها ؛ ليَعمَلُونَ عملاً اقتصادِيّاً لا يَقِلُّ احتياجُ الأُمة المتَحضِّرَةِ اليهِ عن احتياجها الى العَمَلَةِ اليَدَوِيّين

كذلك يُقال فى الأُجَرَاء ؛ فإِنهم نافعُونَ بلا مِرَاء ، ما دامَ عَدَدُهم فى حَدِّ الاعتدال . أليست الطَّاهيةُ أو الوصيفةُ التى تحفظُ نفيسَ الوقت على التَّاجر أو الطَّبيبِ أو العالِم ، أوَ لَيْسَ الأَجيرُ الذى يُنَظِّفُ البيتَ ويَضَعُ الأَشياءَ فى مَواضِعها ، عامِلَيْن مُنتِجَيْن كصبيّ البَدَّالِ ومُساعِدِ النَّجَّارِ ؟

مَنْ شاءَ مَزِيداً فى هذا الصَّدَدِ فليَرْجِعْ الى الفصل الذى أفرَدْناهُ للنَّفائس ، لِيَقِفَ على التأثيرِ الذى يُؤَثِّرهُ فى اتساعِ نِطاقِ الإنتاجِ الاجتماعيِّ ، كَلَفُ الأَغنياءِ والأَوْساط بالزِّيناتِ وسَعَةِ العَيْش

المناسبة والموازَنة بين الحِرَف

إن الذين ذكرنا من تُجَّار ونَقَلَةٍ وذوى مناصبَ عامَّةٍ وخَدَمٍ وأُجَرَاء ، لا تخلو حالتُهم من استدراك . هم مُنتِجُون لأَنَّ الشُّؤُونَ التى يَقُومُون بها ذاتُ معنى اقتصادىٍّ قَضَتْ بهِ مصلحةُ الاجتماع ؛ إلاَّ انهُ لا يَحْسُنُ إِغفالُ النِّسبة بين عديدهم ، وبين المُهِمَّةِ الاجتماعيَّةِ التى انتَدَبوا لها ، وبين مجموع السُّكَّان ، وهذا ما يُفَرِّق بين أصحاب هذه الحِرَف ، وبين أصحاب الحِرْفَةِ الزِّراعيَّة

كلُّ عامل جديد يَنْضَمُّ الى عُمَّالِ الحُقُول يُنتجُ منفعةً ما ؛ وكلُّ ضَرْبةِ معوَلٍ أو جَرَّةِ محراثٍ أو تَنقيَةٍ فى غَيْطٍ أو فى كَرْمةٍ ، يَزِيدُ شيئاً — كَثُرَ ذلك الشىء أو

قلَّ — فى استنباتِ الغلالِ النافعةِ للإنسان . غيرَ أنكَ تجدُ عكس هذه الآيةِ ، حيثما يَحْدُثُ منصبٌ أو خدمةٌ فى الحكومةِ ، وحيثما يَبْرُزُ محامٍ أو طبيبٌ أو أجيرٌ أو تاجرٌ فينضمُّ الى زملائهِ وقد بلغَ عديدُهم الكفايةَ أو أزْبَى عليها

على أنَّ الفرْقَ بين الزُّرَّاع والصُّنَّاع من وجهٍ ، وبين أُولِى تلكَ الحرَف — رؤساءَ كانوا أو مرءوسين — من وجهٍ ثانٍ ، هو أنَّ عملَ الأوَّلين غيرُ محدود ؛ لأنَّ محصولاتِ الغذاءِ ، وصُنوف الأشياءِ المصنوعةِ لقضاء الحاجات المتنوّعة ، مهما تزِدْ ، فزيادتُها خيرٌ . أما الآخرُون من رِجال الحكومة والتُّجَّارِ وذوِى الحرَف الحرَّة ، الذين يُوَزِّعونَ المنتَجاتِ أو يُسيطِرونَ عليها ، أو يُدَبِّرونَ الإنتاج أو يُمِدُّونهُ بمعونة منهم ؛ فأعمالهُم محدودةٌ ، وإذا تفاقمَ عددُهم عن النِّسبة المرْعيَّةِ فالضررُ فى ذلك التَّفاقمِ

بل يَجب ان يبقى المديرونَ والرُّقباءُ والمساعِدونَ من المنتِجين ، على نِسبة معْتدِلة بجانب الزُّرَّاع والصُّنَّاع

فى القرن الماضى زعمت فرقة من الاقتصاديين الفرنسيين المعروفين « بالفيزيوقراطيين[1] » ، ان لا عمل ينتج حقيقة اللهم إلا عمل الأرض : فهى التى تهب المادة التى يستخدمها أصحاب الحرف

ذلك رأى مبالغ فيه ولكن تحت إطلاقه شيئاً من الصواب . فليس لنا ان ننسى أن الأعمال التى تعمل فى ظاهر الأرض وباطنها هى طليعة الإنتاج ، وهى التى تخرج المادة الأولى التى عليها مدار باقى الأعمال ، فهى الجديرة إذاً بأن تبسط المدى للتوسع فى الصناعات التالية لها ؛ كما ان أعمال الغزالين فى المنسج هى التى يتعين معها مقدار ما يجب على النساجين والصباغين ان يعملوه

فمن الجائز ، أن التقدم فى الصناعات المترتبة على منتجات الأرض يزيد أسباب الرضى والمسرة بين الناس ؛ ولكنه لا يستطيع إحداث تغيير مذكور فى حالة الإنسانية ، إلا حيثما تضاعف الزراعة محصولاتها

---

(١) Physiocrates

فرأيُ هذهِ الطائفة مؤسَّسٌ على شيءٍ من الصَّواب ، من حيث تقديمهُ الزّراعةَ على ما سواها . وستَرَى الايمُ القديمةُ مِصْدَاقَ هذهِ الحقيقة يومَ يَكْتَظُّ العالَمُ بآهلِهِ ، فتأبى الأَمْصارُ الجديدةُ من أُقيانيَّة وأمريكيَّة وأفريقية ، إرسالَ المقادير الطائلةِ التى أَلِفَتْ ان تُرْسِلَها اليها ، من الأشياء الغذائيَّة والموادِّ الأوَّليَّة :

مِمَّا أسلفنا تَقَعُ للمُطالِع فائدةٌ فِعليَّةٌ

هى أنَّ الشُّعوبَ التى يَسُوء نظامُ التربية والتعليم عندها بتفاقُمِ أسبابِ التعليم المجَّانيِّ فيها ، أو بتفاقُمِ المُنَشِّطات الخدَّاعةِ التى تُخرِجُ أبناءَ الزّراعة عن أُفُقِهم وتُلقى بهم متهافتين على الحِرَفِ الحرَّة والتِّجارةِ ووظائف الحكومة ، تُسيءُ الى نفسها وتُضِرُّ بمصلحتها الثابتة ؛ لأَنها تَهْدِمُ التَّوازنَ الذى عليهِ قِوَامُ الأَعمال البشريَّة فيما بينها

ولأَنها بتَنْمِيَتِها عَدَدَ المنتجينَ غيرِ المُباشرين[1] على عدد المُنتِجينَ المباشرين تُقَوِّضُ بيدها رُكْنَ بَقائها

---

(١) المباشر الذى يعمَل عملاً ما بيده وملامسته